أربع آيات من كتاب الله تعالى

في نزول عيسى عليه السلام

١ ــ ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى
ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا
وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾. من سورة آل عمران: ٤٥ ــ ٤٦.

٢ ــ ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ
بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾. من سورة المائدة: ١١٠.

٣ ــ ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ
وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ
وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ
إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾.

من سورة النساء: ١٥٧ ــ ١٥٩.

٤ ــ ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾﴾.
﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَـٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾.
﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾.
من سورة الزخرف: ٥٧ و ٥٩ و ٦١.

انظر تفسير الآية الأولى والثانية في ص ٢٩١، وتفسير الآية الثالثة في ص ٩٣ و ٢٧٩ ــ ٢٨٧، وتفسير الآية الرابعة وبيان قراءتها في ص ٢٨٩ ــ ٢٩١.

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وأصحابه وتابعيه بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد فهذه تقدمة للطبعة الثالثة من كتاب «التصريح بما تواتر في نزول المسيح» للإمام المحدِّث الكبير الشيخ محمد أنور شاه الكشميري الهندي، رحمه الله تعالى وأجزل له المثوبة والرضوان في دار كرامته.

وقد دعاه إلى تأليف هذا الكتاب في حينه، الردُّ على الفرقةِ الضالّة: (القاديانية)، وكشفُ كفرِها وخروجِها عن المِلّة والدين، كما هو مشروح في مقدمة هذا الكتاب، بقلم تلميذ المؤلف شيخنا العلامة المحقق المحدِّث محمد شفيع مفتي باكستان رحمه الله تعالى.

ولما حقَّقتُ هذا الكتاب ـ بعون الله تعالى وفضله ـ ، وقمتُ بخدمته وطبعِه منذ خمس عشرة سنة على الوجه الذي يراه القارىء، لَقِيَ من القبول والرضا والاستحسان ما لم أكن أتوقعه، ونَفَع الله به خلقاً كثيراً، وأنار به حُكماً كان مغموراً، وأفاد أناساً كباراً من عِلْيَةِ أهل العلم والفقه في هذا العصر، كانوا ينظرون إلى هذه المسألة بالاستضعاف ولين الثبوت، فلما وقفوا على هذا الكتاب وقرأوه، تحوَّلوا ـ بفضل الله تعالى ثم بفضل هذا الكتاب ـ إلى الاعتقاد الحق فيها، وأنها من الأمور الثابتة المتواترة تواتراً معنوياً لا ريب فيها.

فأزال هذا الكتابُ ـ بفضل الله وكرمه ـ غموضَ هذه المسألة من نفوس كثير من أهل العلم، وأبدلهم بالغموض فيها وضوحاً، وبالتردُّد يقيناً، وبالتوقف جزماً، وبالاستضعاف لها دفاعاً عنها، فالحمد لله على فضل الله.

أما نفعُهُ للعامة والخاصة من طلبة العلم وراغبيه، فقد كان واسعاً وكثيراً، إذ وجدوه قد جَمَع لهم نصوصَ هذه المسألة خيرَ جَمْع، وضَبَطها، وحقّقها، وشَرَحها، وجلّى معانيها والمرادَ بها خيرَ تجلية، بحيث يَفهمها العالم والمتعلم والرجل والمرأة، على وجه تطمئن به القلوب، وتستقر فيه العقيدةُ المتوارثةُ من السلف إلى الخلف على أنصع يقين، وبحيث يُدفَعُ القارىءُ النافرُ عن الجادة في هذه المسألة، إلى الرجوع إليها والإذعانِ لها كما هو الحق.

وصَدَرتْ الطبعة الأولى منه بحلب سنة ١٣٨٥، وقدّر الله تعالى لها النفاد في وقت قصير، واشتد الطلبُ على الكتاب من جهات شتى، من الهند وباكستان ومصر واليمن والشام وغيرها من بلاد الإسلام، ولم أمِل إلى طبعه كما هو، بُغيةَ أن أُضيف إليه إضافات، وأزيد فيه زيادات، تجمّعتْ لديَّ بعد طبعه، تزدادُ بها محاسنُ الكتاب وفوائدُه، ولكن لم أتمكن من ذلك لأسباب قاهرة.

ولما قام علماء الإسلام في باكستان قومتَهم الحميدة، منذ خمس سنوات، لعزلِ (الفِرقة القاديانية) عن الإسلام شرعاً وقانوناً هناك، رأوا من خير ما يساعدهم في هذه الحَمْلَة الصعبة الشاقة، للتغلب على هذه الفِرقة وكشفِ كفرها ومروقِها من الإسلام: طبعَ هذا الكتاب، فصوَّرَتْه «جمعية تحفُّظِ خَتْم النبوّة في باكستان»، التي كان رئيسَها شيخُنا العلامة المحدِّث الفقيه المجاهد الكبير محمد يوسف البنوري رحمه الله تعالى، وطَبَعَتْه بكميّاتٍ كبيرة، ووزَّعته على العلماء والمتعلمين والمثقفين هناك، فأعطى أطيبَ الثمرات، وكتَبَ الله النصر للعلماء على (القاديانية)، فعُزِلَتْ عن الإسلام، واعتُبرت طائفةً من الطوائف غير المسلمة في الجمهورية الإسلامية الباكستانية.

وتتابع عليَّ الطلبُ بطبعه من غير جهة، من البلاد العربية وغيرها، وكنتُ أُرجىءُ طبعَه على أمل أن أتمكن من إعادة طبعِه وصَفِّه من جديد، لأُدخِل (الإضافات والمستدركات) فيه إلى مواضعها، ولكن ظروف الطباعة القاسية اليوم لم تمكني من هذا الذي أرغبه، فطبعتُ الكتاب تصويراً كما هو في طبعته الأولى، وقدَّمتُ له بهذه المقدمة، مع كلمةٍ موجهةٍ إلى المتراكلين القاعدين عن الجِدّ والعمل

لنصرة الإسلام ودفعِ قوى الباطل، استسلاماً، وانتظاراً منهم لنزول عيسى عليه السلام.

واستدركتُ تصحيحَ الأخطاء المطبعية الطفيفة التي وقعَتْ فيه، وتداركتُ (الإضافات والاستدراكات) التي تجمَّعتْ لدي، فجعلتُها في آخر الكتاب من هذه الطبعة، مع الإشارة إلى مواضعها من صفحات الكتاب وسطوره، ووضعتُ نجمةً في داخل الكتاب، على الكلمة أو الجملة التي عليها استدراك، أو فيها إضافة، ليعود القارىء إليها في آخر الكتاب، سوى استدراكين كانا في الطبعة الأولى في آخرها، فوضعتُ على موضعهما من داخل الكتاب نجمتين، إشارةً إلى أنهما في استدراك الطبعة الأولى ص ٣٥٠.

فإذا لاحظ القارىء فوق الكلمة نجمةً، فإنها تشير أن في الاستدراك بآخر الكتاب إضافةً عليها، أو تعديلاً لجملتها أو ما يتعلّقُ بها، وأغلبُ هذه الاستدراكات والإضافات، تهمُّ طُلَّاب العلم والمتخصصين، أما القارىء المثقف فهي تزيده فائدةً ومعرفة، ولا تَنقصُهُ علماً إذا أغفلها في الغالب.

وأسأل الله تعالى أن يَنفع بهذا الكتاب قارئيه، ويُزيلَ به الشكوكَ والغُموضَ من صدور المؤمنين الضعفاء الحائرين، ويُكرمَني بصالح دعواتِ من يَنتفعُ به، ويَدَّخِرَ لي ثوابَ خدمتي له وعنايتي به عندَه. ﴿يومَ لا يَنفعُ مالٌ ولا بنون إلاَّ مَنْ أَتى اللَّهَ بقلبٍ سليم﴾. والحمد لله رب العالمين، وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليماً كثيراً.

وكتبه

في الرياض ١٦ من رمضان المبارك ١٣٩٩ — عَبدالفتّاح أبوغُدّة

كلمة إلى المتواكلين القاعدين عن العمل الجِدِّي لنصرة الإسلام استسلاماً، وانتظاراً منهم لنزول عيسى عليه السلام.

تعرَّض هذا الكتاب إلى جملةٍ من العلامات التي تتقدم (الساعة)، وتَسبِقُ انتهاءَ الحياة الدنيا، وهناك فكرة شائعة لدى عدد من عوامِّ المسلمين، وهي أنهم يتخذون من إخبار الرسول ﷺ بهذه العلامات، مُتَّكأً لهم في تركِ العمل الجِدِّي إلى إعادة الحياة الإسلامية الصحيحة، وقد ربطوا بعلامات الساعة أمراً لا صلة له بها!

وهو أن العمل الآن لا يُجدي، لأنه لا بد أن يزداد الفساد، وينتشر الضلال، وتأتي الخوارق التي تتقدم الساعة، من ظهور المهدي ونزول عيسى عليه السلام. . . ، وحينئذ يعود الإسلام وينتصر الدين، وينتشر الحق، ويقوى أهله، ويسودُ الحكمُ بالإسلام على وجهه، فلا جدوى الآن من مقاومة الباطل وأهله مهما حاول الإنسان المسلم!

وهذه الفكرة الضالّة الخبيثة ــ وقد تكون دخيلةً على المسلمين بمخارز أعدائهم الناعمة ــ : أَسقَطَتْ السعيَ الجِديَّ الواجب، والوعيَ الإسلامي الصحيحَ، عند هؤلاء الجاهلين ومن يدور في فَلَكِهم من المسلمين المغفلين! فقد أَثَّرتْ فيهم تأثيراً سَلْبياً، وأحبطت منهم العملَ الجِدِّيَّ والسعيَ المتواصلَ لإعادةِ الحياة الإسلامية.

وكثيراً ما خَدَع هؤلاء الجاهلون الأغرارُ من المسلمين: أشباهَهم، بقولهم لهم: إن العالَمَ قد اقترب من نهايته، وإن الأحاديث النبوية تدل على استمرار التدهور في شأن الإسلام والمسلمين، ولما كان الأمر هكذا، كان لا جَدوَى من

السعي لعمل شيء في وقف هذا التيار الفاسد، ومنع هذا الانحدار، إذ هو أمر قدَّره الله تعالى، وبلّغه رسولُه ﷺ، ولا بد أنه واقع، فما علينا إلاَّ التسليم والسكون حتى يأتي أمرُ الله الذي لا مَفَرَّ منه.

وهذه الفكرة الخاطئة الزائفة، تجب معالجتُها في نفوس المصابين بها، لدفع هذا التأثير السلبي، الذي أثّرته في إرادة هؤلاء المسلمين الشعوريةِ، واللاشعورية، فإن هذا الاعتقاد الباطل يُعيق الحركة الإسلامية من داخل المسلمين، فضلاً عن المعوِّقات التي تُنثَر في طريقها من خارجهم.

ولو كانت هذه الفكرة صحيحة سليمة ثابتة، لما كان الجهدُ والجهاد من السلف في دفع كل زيغ وانحراف، من أي مبطل كان: أجنبياً أو عربياً، مسلماً في الصورة أو كافراً، لأننا إذا مشينا في ظل هذا الفكر الزائغ، لَزِمَنا أن نستسلم لكل ما يواجهنا من صعوبات وتحديات، في مختلِف الشؤون والمستويات! وهذا أمر لا يقول به عاقل، فضلاً أن يكون الشرع الإسلامي أراده منا، وحاشا شَرْعَ الله من أن يُضاف إليه ذلك.

فلماذا يَسعى هؤلاء الجاهلون المصابون بهذه الفكرة المريضة، في تنمية أموالهم وأحوالهم، وتحسين عيشهم ومسكنهم، وما إلى ذلك من أمور الدنيا ومرافق الحياة؟ فإذا جاءوا إلى أمور الدين والجهاد لَبِسَتهم هذه الفكرة الشيطانية، فضَلُّوا وتخاذلوا عن نصرة دينهم، فأين عقلهم وفهمهم من صريح قول النبي ﷺ: «الجهادُ ماضٍ إلى يوم القيامة»، وأمثالِه من الأحاديث الصحيحة الكثيرة، وقد عَلِمَ العالمون البصراء أن سنة الله في عباده: الجهدُ والجهاد، والأخذُ بالأسباب، كما هو بَدَهي عند كل مسلم فاقهٍ لدينه وإسلامه.

فتركُ الجهدِ والعملِ في نصرة الدين والإسلام جريمة، وتركُ دفع المبطلين والظالمين والكافرين المستولين على المسلمين ـ بسبب هذا الاعتقاد الباطل ـ جريمةٌ فوق جريمة، ومصيبةٌ عظيمة أُصيب بها عقلُ المرضى بهذا الاعتقاد، ويجب الإسراعُ بعلاجهم وإنقاذهم من هذا الداء الوبيل!

وما أحسن قولَ الإمام الفقيه الكبير، والعالم العامل الصوفي البصير، الشيخ عبد القادر الجِيلاني البغدادي الشهير: ليس الرجلُ الذي يُسَلِّمُ ـ أي يَستسلِمُ ـ للأقدار، وإنما الرجلُ الذي يَدفعُ الأقدارَ بالأقدار. وفي رواية ثانية عنه يقول: نَفِرُّ من القَدَر الفاضل إلى القَدَر الأفضل.

وهي كلمة حكيمة بصيرة، من لُباب الشرع والعقل جميعاً، وسَنَدُها ومَرجعُها في الكتاب والسنة المطهرة كثير، لو جُمع لجاء في رسالة حسنة، وحسبُك سَنَداً لها ما رواه البخاري في «صحيحه» ١٠ : ١٧٩ بشرح «فتح الباري»، ومسلم في «صحيحه» ١٤ : ٢٠٨ بشرح النووي، كلاهما في كتاب الطب، من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنه:

«أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه خَرَج ـ من المدينة ـ إلى الشام، ـ سنة ١٧ من الهجرة أو ١٨ ـ ، حتى إذا كان بسَرْغ ـ قرية على طَرَف الشام مما يلي الحجاز ـ لَقِيَه أمراءُ الأجناد أبو عُبَيدة بنُ الجرَّاح وأصحابُه، فأخبروه أن الوَبَاء قد وقع بأرض الشام.

قال ابن عباس: فقال عُمَرُ: ادْعُ لي المهاجرين الأوَّلين، فدعوتُهم، فاستشارهم، وأخبَرهم أن الوباء قد وقع بالشام، فاختلفوا، فقال بعضُهم: قد خرجتَ لأمرٍ ولا نَرَى أن تَرجِعَ عنه، وقال بعضُهم: معك بقيّةُ الناس وأصحابُ رسول الله ﷺ، ولا نَرَى أن تُقدِمَهم على هذا الوباء، فقال: ارتفعوا عني.

ثم قال: ادْعُ لي الأنصار، فدعوتُهم، فاستشارهم، فسلكوا سبيلَ المهاجرين، واختلفوا كاختلافهم، فقال: ارتفعوا عني.

ثم قال: ادْعُ لي من كان ها هنا من مَشْيَخة قريش من مُهاجِرةِ الفتح، فدعوتُهم، فلم يَختلِف منهم عليه رجلان، فقالوا: نَرَى أن تَرجع بالناس ولا تُقدِمَهم على هذا الوباء. فنادَى عمرُ في الناس: إني مُصْبِحٌ على ظَهْر فأَصْبِحوا عليه ـ أي إني عازمٌ على السفر صباحاً، راكبٌ على ظهرِ الراحلة إلى وطني، فأصبِحُوا عليه وتأهَّبُوا له ـ .

فقال أبو عبيدة بنُ الجراح: أفِراراً من قَدَرِ الله؟ فقال عمر: لو غيرُك قالها يا أبا عُبيدة! نعَمْ، نَفِرُّ من قَدَرِ الله إلى قَدَرِ الله[1]، أرأيتَ لو كانت لك إبِلٌ، فهَبَطْتَ وادياً له عُدْوَتانِ ــ أي طَرَفانِ وحافَتَانِ ــ إحداهما خِصْبَة، والأخرى جَدْبَة، أليس إن رَعَيتَ الخِصْبَةَ رَعَيتَها بقَدَر الله، وإن رَعَيتَ الجَدْبَةَ رعيتَها بقَدَر الله.

قال: فجاء عبدُ الرحمن بن عوف، وكان متَغيِّباً في بعض حاجته

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» ١٠: ١٨٥ «أطلَق عليه فِراراً لشَبَهِهِ في الصورة، وإن كان ليس فراراً شرعياً. والمراد أن هجوم المرء على ما يُهلكه منهيٌّ عنه، ولو فَعَل لكان من قَدَر الله، وتجنُّبه ما يؤذيه مشروع، وقد يُقدِّرُ الله وقوعَه فيما فرَّ منه، فلو فَعَله أو تركه لكان من قَدَر الله.

ومحصَّلُ قولِ عمر رضي الله عنه: (نعم، نَفِرُّ من قدر الله إلى قدر الله)، أنه أراد أنه لم يَفِرَّ من قَدَر الله حقيقةً، وذلك أن الذي فَرَّ منه: أمْرٌ خافَ على نفسه منه، فلم يَهجُم عليه، والذي فرَّ إليه: أمرٌ لا يَخافُ على نفسِهِ منه إلاَّ الأمرَ الذي لا بُدَّ من وقوعه، سواء كان ظاعناً أو مقيماً».

وقال الإمام النووي في «شرح صحيح مسلم» ١٤: ٢١٠، «وأما قولُ عمر لأبي عُبَيدة: (لو غيرُك قالها يا أبا عبيدة)، فجوابُ (لو) محذوف، وفي تقديره وجهان:

أحدُهما: لو قاله غيرُك لأدَّبتُه، لاعتراضِهِ عليَّ في مسألةٍ اجتهاديةٍ وافَقَني عليها أكثرُ الناس وأهلُ الحلِّ والعقد فيها.

والثاني ــ وهو الأصح ــ لو قالها غيرُك ــ يا أبا عبيدة ــ لم أتعجَّبْ منه، وإنما أتعجَّبُ من قولك أنت ذلك! مع ما أنت عليه من العلم والفضل؟ ثم ذكَرَ له عُمرُ دليلاً واضحاً من القياس الجَلِيِّ الذي لا شك في صحته.

وليس ذلك اعتقاداً من عمر رضي الله عنه أن الرجوع يَرُدُّ المقدور، إنما معناه أن الله تعالى أَمَر بالاحتياط والحزم ومجانبةِ أسباب الهلاك، كما أمَرَ سبحانه بالتحصُّنِ من سلاح العَدُوِّ وتجنُّبِ المهالك، وإن كان كلُّ واقعٍ فبقضاء الله وقَدَرِه السابقِ عليه. وقاسَ عمر ــ هذه المسألة ــ على رَعْي العُدْوَتين: ــ الخِصبة والجَدْبة ــ لكونه واضحاً لا يُنازِعُ فيه أحدٌ مُساواتَه لمسألةِ النزاع».

ـ لم يَحضُـر معهم المشـاورة ـ ، فقـال: إنَّ عنـدي في هـذا عِلمـاً، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: إذا سمعتُم به ـ أي بالوباءِ والطاعون ـ بأرض فلا تَقـدَمُوا عليه، وإذا وَقَع بأرضٍ وأنتم بها فلا تَخرجُوا فِراراً منه. قال: فحَمِدَ اللَّهَ عُمرُ، ثم انصرف».

ويكفي هـذا الشاهـدُ الناطق، والحـديثُ الصادق، في دَحْـر هـذه الفكـرة البـاطلة الزائفـة، وما أُقـدِّرُ نشوءهـا إلَّا من أعداء الإسـلام، استغفلوا بهـا بعضَ المغفَّلين، فنشأت فيهم، واستقرَّتْ في نفوسهم وسلوكهم! فأغنَتْ أعـداءَهم عن تَعَبٍ ونَصَبٍ كبير في أمر الاستيلاء عليهم.

ورَحِمَ الله تعـالى الإمامَ ابنَ القيم، فقـد تعرَّض لهـذه المسألـة في كتـابـه «مدارج السـالكين» ١ : ١٩٨، فأبان الحقَّ فيها ببيانِهِ البديع، وأزهق الباطلَ بكلامِهِ المَنِيع، فقال: «والنظرُ إلى الأقدار هو المجالُ الضَّنْك، والمعترَكُ الصعب، الذي زَلَّتْ فيه أقدام، وضَلَّتْ فيه أفهام، وافترقَتْ بالسـالكين فيه الـطُّرُقَات، وأشـرفوا ـ إلَّا أقلَّهم ـ على أودِيَةِ الهَلَكات.

وكيف لا وهو البحرُ الذي تجري سفينةُ راكبه في موجٍ كالجبال، والمعترَكُ الذي تضاءَلَتْ لشهودِهِ شَجَاعةُ الأبطال، وتحيَّرَتْ فيه عُقولُ أَلِبَّاءِ الرجال، ووصلَتْ الخليقةُ إلى ساحِلِه يبغون ركوبَه، فما نَجَـا منهم إلَّا الذين انتظروا مُوافـاةَ سفينةِ الأَمْر ـ أي الأَخْذِ بالأسباب المشروعة ودفعوا القَدَر بالقَدَر ـ ، فركبوا سفينةَ الأمر بالقَدَر.

وراكبُ هـذا البحرِ في سفينـةِ الأمْـر، وظيفتُـه: مُصـادمَـةُ أمـواج القَـدَر، ومعارَضَتُها بعضِها ببعض، وإلَّا هَلَك، فيَرُدُّ القَدَر بالقَدَر. وهذا سَيْرُ أربابِ العزائم من العارفين، وهو معنى قول الشيخ العارف القُدوة عبد القادر الكِيلاني: «الناسُ إذا وصلوا إلى القضاءِ والقَدَر أمسكوا، إلَّا أَنَا، فانفتَحَتْ لي فيه رَوْزَنَةٌ ـ أي كُوَّةٌ ونافذة ـ فنازَعْتُ أقدارَ الحق، بالحق، للحق، والرجلُ من يكون مُنازِعاً للقـدر، لا من يكون مستسلماً مع القَدَر».

ولا تتم مَصالحُ العباد في مَعاشِهم إلَّا بدفع الأقـدارِ بعضِها ببعض، فكيف في مَعادِهم؟

والله تعالى أمَرَ أن تُـدفع السيئـة ــ وهي من قَدَرِه ــ بـالحسنة ــ وهي من قَدَرِه ــ ، وكذلك الجُوعُ من قَدَرِه، وأمَرَ بدفعِهِ بـالأكل الـذي هو من قَـدَرِه، ولو استَسلَمَ العبدُ لِقَدَرِ الجُوع، مع قدرته على دفعِهِ بقَدَرِ الأكـل، حتى مات: مـات عـاصياً. وكـذلك البَـرْدُ والحَرُّ والعـطشُ، كلُّها من أقـدارِه، وأمَرَ بـدفعها بـأقدارٍ تُضادُّها. والدافعُ والمدفوعُ والدَّفْعُ من قَدَرِه.

وقـد أفصـح النبـي ﷺ عن هـذا المعنى كـلَّ الإفصـاح، إذ قـالـوا: «يا رسول الله، أرأيتَ أدويةً نَتداوَى بها، ورُقًى نَسترقِي بها، وتُقًى نَتَّقِي بها، هل تَرُدُّ من قَدَرِ الله شيئاً؟ قال: هي من قَـدَرِ الله». وفي الحديث الآخـر «إنَّ الدعـاءَ والبلاءَ لَيَعْتَلِجانِ بين السماءِ والأرض».

وإذا طَرَق العدوُّ من الكفار بلَدَ الإسلام طرقوه بقَدَرِ الله، أفيَحِلُّ للمسلمين الاستسلامُ للقدر، وتركُ دفعِهِ بقَدَرٍ مِثلِه، وهو الجهادُ الذي يَـدفعون بـه قَدَرَ اللّهِ بقَدَرِه؟

وكذلك المعصيةُ إذا قُدِّرَتْ عليك، وفَعَلْتَها بالقَدَر، فادفع مُوجِبَها بـالتوبـةِ النصوح، وهي من القدر.

ودَفْعُ القَدَرِ بالقدر نوعان:

أحدُهما: دَفْعُ القَدَرِ الذي قد انعقدت أسبابُه ــ ولمَّا يقع ــ بأسبابٍ أخرى من القَدَرِ تقابله، فيمتنعُ وقوعه، كدفعِ العدو بقِتالِه، ودفعِ الحرِّ والبردِ ونحوِه.

الثاني: دَفْعُ القدر الذي قد وَقَعَ واستقر بقَدَرٍ آخَرَ، يرفعُه ويُزيلُه، كدفع قَدَرِ المرض بقَدَرِ التداوي، ودفعِ قَدَرِ الذَّنْبِ بقدر التوبـة، ودَفْعِ قَـدَرِ الإساءة بقـدر الإحسان.

فهذا شأنُ العارفين وشأنُ الأقدار، لا الاستسلامُ لها، وتَرْكُ الحركة والحيلة. فإنه عجز. والله تعالى يلوم على العجز. فإذا غُلب العبد، وضاقت به الحيل، ولم يَبق له مَجال، فهنالك الاستسلامُ للقَدَر، والانطراحُ كالميت بين يدَيْ الغاسل يقلبه كيف يشاء». انتهى. والحمد لله رب العالمين.

وختاماً نسأل الله العافية من الجهل وآثاره، ونستلهمُه سبحانه الرشادَ والسداد في جميع الشؤون، ومنها مجاهدةُ الأعداء، فإنه نعم المولى ونعم النصير.

وكتبه
عبد الفتاح أبو غُدّة